﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾

[الروم: 4 - 5]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

انتصارٌ موعودٌ للرّوم يُصاحبُه فرحٌ للمؤمنين

بعد أنْ كشفتِ الآياتُ السّابقةُ عن وجهٍ جديدٍ من أوجُه إعجاز القرآن الكريم، يُضاف إلى الإعجازِ البيانيِّ بصفة عامة، وإعجازِ الحروفِ المقطَّعة بصفةٍ خاصَّة، ويتمثَّلُ في معجزةِ الإخبار بأمورٍ تحدُثُ في المستقبل، وسيشهَد على وقوعها مَنْ بقيَ على قيد الحياة مِن المُتَلقّين، ومِنها: انتصارُ الرّوم على الفرس انتصارًا كبيرًا يُفرِحُ المؤمنينَ ويَغيظُ المشركين، تأتي هاتانِ الآيتانِ لتوضيح المَدى الزمنيِّ الَّذي يستغرقُه هذا النّصرُ العظيمُ حتى يحصُلَ، وتُبَيّنان أنّه يحصُلُ في مدّةٍ زمنيَّة تتراوحُ بين ثلاثِ سنواتٍ وتسعٍ، وهي مُدّةٌ قصيرةٌ في أعمارِ الأمم، كما تُقَرِّرُ الآيتانِ أنّ أمرَ النَّصر والهزيمةِ يحصلُ وفْقَ مقاديرِ اللّه تعالى وسُنَّتِه في كونِه، وأنَّه لا دخلَ لأحدٍ من البشرِ في ذلك.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِضۡعِ﴾: (بضع) أُصولٌ ثَلاثَةٌ: الأوَّلُ: الطّائِفَةُ مِنَ الشَّيْءِ عُضْوًا أوْ غَيْرَهُ، والثّاني: بُقْعَةٌ، والثّالِثُ: أنْ يُشْفَى شَيْءٌ بِكَلامٍ أوْ غَيْرِهِ[1]، والبِضْعُ بالكسر: المنقطَعُ من العَشَرة، ويقالُ ذلك لما بينَ الثلاثِ إلى العشرة، وقيل: بل هو فوقَ الخمس ودونَ العشرة، ومنه قولُه تعالى: ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾[2].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بضع).
(2) الراغب، مفردات القرآن: (بضع).

2) ﴿ٱلْأَمْرُ﴾: (أمر) أُصولٌ خَمْسَةٌ: الأمْرُ مِنَ الأُمورِ، والأمْرُ ضِدُّ النَّهْيِ، والأمَرُ: النَّماءُ والبَرَكَةُ بِفَتْحِ الميم، والمَعْلَمُ، والعَجَبُ، فأمّا الواحِدُ مِنَ الأُمورِ فقَوْلُهُمْ: هَذا أمْرٌ رَضيتُهُ، وأمْرٌ لا أرْضاهُ، وفي المَثَلِ: "أمْرٌ مّا أتَى بِكَ"[1]، والأمْرُ: الشّأنُ، وجمعُه أُمورٌ، وهو لفظٌ عامٌّ للأفعال والأقوال كلِّها، وهو طلبُ الفعل بالقولِ الصّادر من الأعلى رتبةً للأدنى، والمرادُ به في الآية: القرارُ العظيم والحُكمُ الذي لا يتبدّلُ ولا يتغيّر.

3) ﴿يَفْرَحُ﴾: (فرح) أصْلانِ، يَدُلُّ أحَدُهُما عَلَى خِلافِ الحُزْنِ، والآخَرُ على الإثْقالُ، فالأوَّلُ الفَرَحُ، يُقالُ: فرِحَ يَفْرَحُ فرَحًا، فهوَ فرِحٌ، قالَ تَعالَى ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [غافر: 75][2]، والفَرَحُ: انشراح الصّدر بلذّة عاجلةٍ، وأكثرُ ما يكون ذلك في اللّذّات البدنيّة الدّنيويَّة، والمرادُ به في الآية: انشراحُ الصّدر ودخولُ السّرور.

4) ﴿بِنَصْرِ﴾: (نصر) أصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى إتْيانِ خَيْرٍ وإيتائِه، ونَصَرَ اللّهُ المُسْلِمينَ: آتاهُمُ الظَّفَرَ عَلَى عَدوِّهِمْ[3]، والنَّصْرُ والنُّصْرَةُ: العَوْنُ، قال تعالى: ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصف: 13]، والمعنى المحوريُّ: الإمدادُ بما فيه زيادةٌ ومناسبةٌ وقوّةٌ: كما تمدُّ النّواصرُ الأوديةَ والتِّلاعَ بالماء، وكما يمدُّ الغيثُ الأرضَ[4]، والمعنى المراد به في الآية: الظّفَر على الأعداءِ بتوفيقِ اللّه وعونِه.

المَعْنى الإجْماليُّ:

توضّحُ الآيتانِ الكريمتانِ أنّ الرومَ ينتصرونَ على الفرس في مدّة زمنيّةٍ تتراوحُ بين ثلاثٍ إلى تسعِ سنوات، ولن تزيدَ على ذلك

النّصرُ والهزيمةُ يحصُلان وفْقَ مشيئةِ اللهِ العزيزِ الرّحيم

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فرح).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نصر).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (نصر).

بحالٍ من الأحوال، كما توضّحان أنَّ هذا النّصرَ يكونُ سببًا في سرورِ المؤمنين وحُزن الكافرين؛ لأنَّ الروم أقربُ للمؤمنينَ لكونِهم أهلَ كتابٍ، والفرسَ أقربُ لمُشركي العرب؛ لأنّهم مثلُهم وثنيّون، كما تُرسِّخ الآيتانِ قاعدةً مُهمّةً، وهي أنّ النصر راجعٌ إلى إرادةِ اللّه ومشيئتِه، يُؤتيه من يشاءُ ويمنعُهُ ممّن يشاء، وأنّ هزيمةَ الروم أوّلًا ونصرَهم ثانيًا، ونصرَ الفرس أوّلًا وهزيمتهم آخِرًا لم يكن خبطَ عَشواء، ولم يكنْ لكليهما فيه إرادةٌ، وأنّ ما حدثَ في المرَّتين لم يخرجْ عن مشيئةِ اللّه الذي يَقْهَرُ ولا يُقْهَرُ الّذي كثُرتْ رحمتُه.

وترشدُ الآيتان إلى أنَّ الغلبةَ والنّصرَ ليس لمجرَّد وجودِ الأسباب، وإنَّما لا بدَّ أنْ يقترنَ بهما القضاءُ والقدر، وإلى أنَّ أهلَ الكتاب من يهود ونصارى - وإن حرَّفوه - أقربُ إلى المسلمينَ من المشركينَ والمَلاحدة ممَّن لا يُؤمنون باللّه واليومِ الآخر[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فصل الآية عما قبلها:

إظهارُ كلٍّ من الغلبةِ والظَّرف بشكلٍ مُستقلّ

جاءَ الجارُّ والمجرور: ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ في ابتداء آيةٍ مفصولًا عن متعلَّقه: ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾؛ الواقعِ في آيةٍ سبقَتْها، والسرُّ في جعلِ المتعلَّق في آيةٍ والمتعلَّق به في آيةٍ أخرى إظهارُ كلٍّ من الأمرين على أنَّه مقصودٌ لذاته، فالإخبارُ بالغلَبة قُصِد لذاته، وتحديدُ ظرفِ الغلَبة ومدَّتِه قُصِد لذاته أيضًا، ومن ثمَّ برزَ كلٌّ منهما بهيئةِ المستقلِّ عن الآخَر المقصودِ لذاته؛ لأنَّهما جميعًا مناطُ الإعجاز.

نكتةُ إبهامِ عددِ سنيّ النَّصر:

مِن سماتِ البيانِ القرآنيِّ عدمُ الخوضِ في التفاصيل

أبْهم النّظمُ الكريم عَدَدَ السِّنينَ التي يتحقّقُ فيها انتصارُ الرّوم على الفرس، ولم يُحدّدْها باليوم والشّهر والعامّ، لأنَّ مُقْتَضَى حالِ

(1) ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل: 2/ 164، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن: 1/ 636، والجزائري، أيسر التفاسير: 4/ 160.

كَلام العَظيم الحَكيم أنْ يَقْتَصِرَ عَلَى المَقْصودِ إجْمالًا، وأنْ لا يَتَنازَلَ إلَى التَّفْصيلِ؛ لِأنَّ التَّفْصيلَ يَتَنَزَّلُ مَنْزِلَةَ الحَشْوِ عِنْدَ أهْلِ العُقولِ الرّاجِحَةِ، وليَكونَ لِلْمُسْلِمينَ رَجاءٌ في مُدَّةٍ أقْرَبَ مِمّا ظَهَرَ، ففي ذَلِكَ تَفْريجٌ عَلَيْهِمْ[1]، بالإضافةِ إلى أنَّ إبهامَ الوقتِ يُفَوِّتُ على المُرجِفين فرصةَ التنبّؤ بالمعركة قبلَ حدوثها، وإثارةَ البلبلةِ حولَ وقتها، لبُعد مكانِ وقوعِها عن مكَّةَ وما حولَها[2].

وجه الإبهام في سورة يوسف:

الإهمالُ والتهاوُنُ بحقوقِ الناس سمةُ أوضاعِ السّجنِ في مصرَ

عبّر البيانُ الكريمُ بـ﴿بِضْعِ سِنِينَ﴾ أيضًا في سورة يوسف، إذ يقولُ: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [يوسف: 42]، ووجهُ إبهامِ العدد فيه أيضًا: الدّلالةُ عَلَى أنَّ السِّجْنَ لَمْ يَكُنْ مَضْبوطًا بِسِجِلٍّ يُذْكَرُ فيهِ أسْماءُ المَساجينِ، وأسْبابُ سَجْنِهِمْ، والمُدَّةُ المَسْجونُ فيها، ولا كانَ مِنْ وزَعَةِ السُّجون ولا مِمَّنْ فوْقَهُمْ مَنْ يَتَعَهَّدُ أسْبابَ السَّجْنِ، ويَفْتَقِدُ أمْرَ المَساجين، ويَرْفَعُ إلَى المَلِكِ في يَوْمٍ مِنَ الأُسْبوعِ أوْ مِنَ العامِ، وهَذا مِنَ الإهْمالِ والتَّهاوُنِ بِحُقوقِ النّاسِ[3]، بقي أنَّ البضعَ المُبهم أُضيفَ في كلتا الآيتين إلى (السنين)؛ للدلالةِ على أنّها سنواتٌ عصيبةٌ قضاها الرّومُ في غلَبتهم، وأنّها أعوامٌ مضنيةٌ يَقضيها السَّجينُ في السِّجن.

موقعُ الجملةِ الاسميَّةِ ودلالتها:

كلُّ شيءٍ تمّ بقدَرِ اللهِ، ولا يخرجُ شيءٌ عن إرادتِهِ

الجملة الاسمية الواردة في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ يمكنُ أنْ تكون معترضةً بينَ المُتعاطِفات وظيفتُها التوضيحُ والبيان؛ فقد جيءَ بها لبيانِ قُدرةِ اللهِ النافذةِ، في كلِّ وقتٍ وحينٍ، والمعنى: للّه وحدَه الأمرُ النّافذُ من قبلِ انتصارِ الفرس على الرّوم، ومن بعدِ انتصار الرّوم على الفرس، وكِلا الفريقين كان نصرُهُ أوْ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 44.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 25/ 80.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/ 279.

هزيمتُهُ بإرادة الله ومشيئتِه وتدبيرِه، وليس لأحدٍ من الخلق أن يخرجَ عما قدّره سبحانه وأرادَه[1].

ويمكنُ أنْ تكون الجملةُ مُستأنفةً استئنافًا بيانيًا؛ لأنَّها تجيبُ عن سؤالٍ يُثيره الكلام السّابقُ عليها عن فائدةِ الإخبار بغَلبة الفرس للرّوم، ثمّ الإخبارِ بغَلبة الرّوم للفرس في بضعِ سنين، فتأتي جملةُ: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ﴾ لتبيِّن أنَّ كلَّ ذلك تمّ ويتمُّ بقدر الله تعالى، ولا يخرج شيءٌ منه عن إرادتِه سبحانه، وأنَّ له من وراءِ ذلك حِكَمًا، من أهمِّها هنا إثباتُ أنَّ القرآنَ من عند الله تعالى، ومؤانسةُ المؤمنين وتبشيرُهم بانتصارِ الروم على الفرس في المستقبلِ القريب، بقي أنَّ الجملةَ الاسميّةَ تدلُّ على الثّبوت والدَّوام؛ إذ الحُكم والشَّأن العظيمُ والتدبيرُ المُحكَم لله تعالى وحده في نصْرِ جماعةٍ على جماعةٍ وخسارةِ قوّةٍ أمامَ قوّةٍ.

معنى (اللّام) و(أل) في الجملة الاسميَّة:

تصريفُ الأمور راجعٌ إلى الله ﷻ

(اللام) الجارّة في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ﴾ هي لامُ الاختصاصِ الدالَّةِ على أنّ تصريفَ الأمورِ كلِّها راجعٌ إلى الله جلَّ في علاه، وأنه لا يحصلُ أيُّ شيءٍ في مُلكِه إلّا بعِلْمِه وإرادته، وأما (أل) في المبتدأ: ﴿ٱلْأَمْرُ﴾ هي التي للجنس، الذي يشملُ كلَّ الأمور، ما صَغُر منها وما كبُر، وما قلّ منها وما كثُر، والمعنى: إنَّ الأمرَ كلَّه لله تعالى، وليس لأيٍّ من الطَّرفينِ المُتحاربينِ في الأمر من شيءٍ؛ فأمرُهُ نافذٌ وقضاؤُهُ محتّمٌ وإرادتُه ناجزةٌ.

نكتةُ تقديمِ المُسند على المُسند إليه:

إبطالُ تطاوُلِ المُشْرِكينَ الَّذينَ بَهَجَهُمْ غَلَبُ الفُرْسِ عَلَى الرّومِ

وفي قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ﴾ تمّ قَصْرُ ﴿ٱلْأَمْرُ﴾ والشأنّ على كونِه لله تعالى، بطريقِ تقديم الخبر ﴿لِلَّهِ﴾ على المبتدأ ﴿ٱلْأَمْرُ﴾، قَصْرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا، يؤكّد المعنى ويُقوّيه، وينفي نفيًا قاطعًا

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 67.

أنْ يكون لأحدٍ غيرِ اللّه تعالى أيُّ دخلٍ فيما يَجري من انتصارٍ أوْ هزيمة، أوْ أيِّ شيءٍ يحدُثُ داخلَ كونِ اللّه الفسيح، يقولُ ابن عاشور: "وَتَقْديمُ المَجْرورِ في قَوْلِه: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ﴾؛ لإبْطالِ تَطاوُلِ المُشْرِكينَ الَّذينَ بَهَجَهُمْ غَلَبُ الفُرْسِ عَلَى الرّوم، لأنَّهُمْ عَبَدَةُ أصْنامٍ مِثْلَهُمْ؛ لاسْتِلْزامِهِ الاعْتِقادَ بأنَّ ذَلِكَ الغَلَبَ مِنْ نَصْرِ الأصْنامِ عُبّادَها، فبَيَّنَ لَهُمْ بُطْلانَ ذَلِكَ، وأنَّ التَّصَرُّفَ لِلَّه وحْدَهُ في الحالَيْنِ"[1].

معنى ﴿مِن﴾ وفائدةُ دخولها:

الأمرُ لله تعالى مِنْ قبل الغَلَب ومِنْ بَعدِه

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُۚ﴾ هي البيانيّة القاطعةُ المؤكّدة أنّ الأمرَ للّه تعالى، ولا يخرجُ عن إرادتِه في أيِّ وقتٍ وحينٍ، سواءٌ: قَبْلَ الغَلَبَةِ أوبَعْدَها، وسواءٌ مِنْ قَبْلِ هَذِهِ المُدَّةِ أوْ مِنْ بَعْدِها، يَعْني: إنْ أرادَ غَلَبَهُمْ غَلَبَهُمْ قَبْلَ بِضْعِ سِنينَ، وإنْ أرادَ غَلَبَهُمْ غَلَبَهُمْ بَعْدَها، وما قَدَّرَ هَذِهِ المُدَّةَ لِعَجْزٍ، وإنَّما هيَ إرادَةٌ نافِذَةٌ[2].

نكتةُ حذفِ المضافِ إليه:

عمومُ المعنى وشمولُه كلَّ شيءٍ يحدُثُ في كونِ اللّه وملكوتِه

حُذِف المضافُ إليه في قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُۚ﴾، إذِ التقدير: (مِنْ قَبْلِ غَلَبَةِ الرّوم ومِنْ بَعْدِها)[3]، والسرُّ في حذفِه أنْ يتَّسِعَ المعنى ويعُمَّ كلَّ شيءٍ يحدثُ في كون اللّه تعالى وملكوتِه، فلله الأمر من قبلِ حصولِه، وللّه الأمر من بعدِ حصولِه، ويدخلُ في ذلك هزيمةُ الرّوم وانتصارُهم، وانتصارُ الفرس وهزيمتُهم دخولًا أوّليًّا.

غرضُ العطف:

الحالُ أنّ كلَّ الأمور والشّؤون راجعةٌ إلى الله تعالى

عُطِف قولُه: ﴿وَمِنۢ بَعْدُۚ﴾ على قَولِه: ﴿مِن قَبْلُ﴾ دفعًا لتوهُّم أنّ الأمرَ للّه تعالى من قبلِ غَلبِ الفرس للرّوم، وليس له مِن بعده، فكان في العطف تأكيدٌ لكونِ الأمر بيدِه من قبل الغَلب ومن بعدِه، وأنّ ماحدثَ من غَلَبِ الفُرسِ للروم أوّلًا راجعٌ إلى إرادتِه سبحانه وحدَه،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 46.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 80.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 375.

وما سيحصُل بعدَه من غلبِ الرّوم للفرس في بضعِ سنينَ راجعٌ أيضًا إلى إرادتِه، وكذلك الحالُ في كلِّ الأُمور والشُّؤون، بقيَ أنَّ محلَّ الجارِّ والمجرورِ ﴿مِن قَبْلُ﴾ والمعطوفَ عليه في محلِّ النَّصب حالٌ؛ أي: إنَّ للّه الأمرَ حالَ كَوْنِه مِن قبلُ ومن بعدُ، والحالُ يدلُّ على شمولِ أمرِه وحُكمه كلَّ شيء، فلا يخرجُ شيءٌ عن إرادته، وإنْ كان الأمرُ كلُّه للّه تعالى فلا يُستبعَدُ أنْ يقومَ المسلمونَ وهم قلّةٌ بالانتصار على كلٍّ من الأمّتينِ العظيمتينِ مستقبلًا.

معنى الواو:

الجمعُ بينَ انتصار الرّوم وفرحِ المؤمنين بنصرِ الله

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ لعطفِ ما بعدَها على قولِه: ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾، وبها يَجمَعُ النّظمُ بينَ نصرِ الرّوم على الفرس وما يترتّبُ عليه من فرَحِ المؤمنينَ بنصرِهم، وبينَ ما يُصاحبُه كذلك من انتصارِ المؤمنينَ في معركةِ بدر على المشركين.

دلالة المتعلّق، ونوعُ التنوينِ فيه:

فرحُ المؤمنين وحُزْنُهم مُتعلّق بالله تعالى

اشتملَ قولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ على ظرفٍ أُضيفَ إلى مثلِه، وهو مُتَعَلِّقٌ بـ﴿يَفْرَحُ﴾، والتنوينُ فيه عِوضٌ عن جملةٍ محذوفةٍ، تقديرُها: ويومَ إذ تغلبُ الرّومُ على فارس ويَحُلُّ ما وعدَه اللّه ﷻ من غَلَبَتِهم يفرحُ المؤمنون بنصرِ اللّه[1]، ودلَّ المتعلَّقُ المتقدِّمُ على متعلَّقه على تخصيصِ فرحِ المؤمنين بذلك اليوم، لما فيه من انتصارِ أهلِ الكتب السَّماويَّة التي تُعظِّمُ اللّه على أهلِ الأوثان التي تفتري على اللّه وتُكذّبُ رُسُلَه، وفي هذه الفَرحةِ دعوةٌ للمسلمين إلى أنْ يكون فرحُهم وحُزْنُهم مُتعلِّقًا باللّه تعالى، فيُفضِّلونَ في حُبِّهم أهلَ الأديان على أهلِ الإلحاد.

نكتة التّعبير بالفعل المضارع:

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 467.

﴿يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾؛ لأنه يحصلُ في المستقبل، وللدّلالة على أنّ فرحَهم بانتصار الرّوم على الفرس يكونُ فرحًا متجدّدًا على مرِّ العصور؛ لانتصار مَنْ له كتابٌ على مَنْ لا كتابَ له، ولإثباتِه إعجازَ القرآن الكريم، وصدقَه في كلّ ما يُخبرُ به، سواءٌ أكانت هذه الأخبارُ عمّا حدثَ فيما مضى، أم كانت عمَّا سيحدثُ فيما هو آتٍ.

تَجَدُّد الفرحِ بانتصارِ الرّوم عبرَ العصور والأزمان

معنى التعريف:

(أل) في قوله تعالى ﴿يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ تفيدُ الجنس، وهي تدلُّ على أنَّ كلَّ مَنْ خالطَ الإيمانُ قلبَه يفرحُ بخبرِ انتصار الرّوم على الفرس عندما يحصلُ، وأنَّه لن يحزنَ لذلك إلا الكافرُ والمنافق؛ لأنَّ انتصارهم يغيظ الكافرينَ الَّذين فرحوا بانتصارِ الفرس على الروم، وسيُبَيِّن وجهًا جديدًا من أوجُه إعجاز القرآن، ويؤكّد كونه مُنَزَّلًا من عندِ اللّه تعالى كما سبق توضيحُه.

لن يَحزنَ لانتصار الروم إلّا كلُّ كافرٍ ومنافقٍ

معنى الباء:

(الباء) في قوله: ﴿بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ هي باءُ السببيَّة أوِ التعليل[1]، التي توضّحُ السَّببَ في فرح المؤمنين، وهو: تَحَقُّقُ النّصرِ الَّذي وُعِدوا به، والمعنى: يفرحُ المؤمنونَ بسببِ إظهارِ صدقِهم فيما أخبَروا به المشركينَ من غَلبة الروم، وقيل: (نَصْر اللّهِ) يعني: أنّه ولَّى بعضَ الظّالمينَ بعضًا وفرَّق بين كلمِهم، حتى تفانَوا وتناقَصوا، وفَلَّ هؤلاءِ شوكةَ هؤلاء؛ وفي ذلك قوّةٌ للإسلام، وعن أبي سعيد الخُدريِّ ﷺ: وافقَ ذلك يومَ بدر، وفي هذا اليومِ نُصِرَ المؤمنون[2].

سببُ الفرحِ تَحَقُّقُ النَّصرِ الذي وُعِدوا به

فائدةُ الإضافة:

في إضافة النّصْر إلى اسم الجلالة العَلَم في قوله تعالى: ﴿يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ تفخيمٌ للنَّصر وتعظيمٌ، وإشارةٌ إلى أنّه

نصرٌ عظيمٌ لَنْ يتمَّ إلا بِعَوْنِ اللهِ وتوفيقِه

(1) المرادي، الجنى الداني، ص: 30.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 467.

سيكون نصرًا كبيرًا يَفوقُ انتصارَ الفرس على الرّوم فيما سبقَ، وفي الإضافة أيضًا دلالةٌ على أنّ هذا النَّصر يكون مِنَّةً مِن الله على الرّوم وتَفَضُّلًا، ولن يتمَّ إلا بعونِه وتوفيقِه لهم في الإعدادِ والقِتالِ والنِّزالِ، يقولُ البقاعي: "فقد وقعَ الفرحُ بالنّصر الَّذي ينبغي إضافتُهُ إلى الله تعالى، وهو نصرُ أهلِ الدّين الصَّحيح أصلًا وحالًا ومآلًا"[1].

سِرُّ التقديم والتأخير:

التقديمُ باعتبار القصد أبلغُ في الإعجاز

الجارُّ والمصدرُ المجرورُ في قَوْلُه تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ يَحتمِلُ - وهو الأرجحُ - تعلّقُه بـ﴿يَفْرَحُ﴾، وعليه لا تقديمَ في المصدرِ على فعلِه، ويحتملُ أنَّه متعلِّقٌ بـ﴿يَنصُرُ﴾، وقد قُدِّمَ المَصْدَر عَلَى الفِعْلِ هنا، وقُدِّمَ الفِعْلُ عَلَى المَصْدَرِ في قوله: ﴿أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ﴾ [الأنفال: 62]؛ لأنَّ المقصود هاهنا بَيانُ أنَّ النُّصْرَةَ بيَدِ اللَّهِ، إنْ أرادَ نَصَرَ وإنْ لَمْ يُرِدْ لا يَنْصُرْ، ولَيْسَ المَقْصودُ النُّصْرَةَ ووُقوعَها، والمَقْصودُ هُناكَ إظْهارُ النِّعْمَةِ عَلَيْهِ بِأنَّهُ نَصَرَهُ، فالمَقْصودُ هُناكَ الفِعْلُ ووُقوعُهُ فقَدَّمَ هُناكَ الفِعْلَ، ثُمَّ بَيَّنَ أنَّ ذَلِكَ الفعل مصدرُه عند الله، والمقصود هاهنا كَوْنُ المَصْدَرِ عِنْدَ اللَّهِ إنْ أرادَ فعَلَ، فقَدَّمَ المَصْدَرَ[2].

نكتةُ الفصل:

تأكيدُ الإخبار بأنَّ نصرَ الرّوم على الفرس يكونُ بعون الله وتوفيقه

جاء قولُه: ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ مفصولًا عمّا قبله لكمالِ الاتّصال، الذي تَنْزِلُ فيه الجملةُ الثانيةُ ممّا قبلها منزلةَ التابعِ من المتبوع، وبيانُ ذلك أنَّ قوله: ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ يؤكِّدُ ما سبقَهُ من الإخبار بأنَّ نصرَ الرّوم على الفرس في المستقبلِ يكونُ بعونِ الله تعالى وتوفيقِه، ومِنْ ثمّ يكونُ المعنى: ينصرُ اللهُ مَنْ يشاءُ نَصْرَه، ومنهم الرّومُ، ويهزم مَنْ يريدُ هزيمتَه، ومنهمُ الفُرسُ، واختارَ التعبير

(1) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 32.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 81.

بالجملة الفعليَّة للدلالةِ على الحدوث والتجدُّد؛ إذ النّصرُ وعدمُه داخلانِ ضمنَ حِكَم عظيمةٍ لا يعلمُ أسرارَها إلا الله تعالى.

دلالةُ التّعبير بالمضارع الأول:

لا ينتصرُ أحدٌ إلا بإرادةِ الله، ولا يُهزمُ جمعٌ إلا بحكمتِه

عبّر النظمُ الكريم بالفعل المضارع الأوّل في قوله تعالى: ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾؛ لدلالتِه على أنَّ نصرَ الله تعالى لمَن يشاء عملٌ مُتجدّد، لاينقطعُ ولا يتوقّفُ، وليس خاصًّا بالرّوم وحدَهم، وأنَّه يمتدُّ ويتَّسعُ ليشملَ المسلمينَ وغيرهم، فلا ينتصرُ أحدٌ إلّا بإرادته، ولا يُهزم جمعٌ إلّا بحِكمته.

دلالةُ التّعبير بالمضارع الثاني:

لا أحدَ يضمَنُ النصرَ، ولا أحدَ يَجزمُ بالهزيمة

عبَّر النَّظمُ في جملة الصِّلة بالفعل المضارع الثاني في قوله تعالى: ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾؛ لدلالته على أنّ النصرَ والهزيمةَ خاضعانِ لمشيئةِ الله المتجدّدة باعتبارِ تعلُّقاتها، ما يعني: أنْ لا أحدَ يضمَنُ النصرَ ويدّعي جدارتَه به، ولا أحدَ يتوقّعُ الهزيمةَ ويجزم بحصولِها، وإنَّما يرتبطُ كلاهما بعدَ الأخذِ بالأسباب بإرادةِ الله الّذي يضعُ كلَّ شيء في موضعِه، فينصرُ مَنْ يكون النَّصرُ أكثرَ نفعًا له، وأكثرَ استحقاقًا وجدارةً به، ويَهزمُ مَنْ تكونُ الهزيمةُ أكثرَ إصلاحًا لشأنه، وأفضلَ مناسبةً لحاله.

وفي إيرادِ جملةِ الصِّلة توضيحًا للموصولِ المُبهم الواقعِ مفعولًا به للنّصر؛ احتراسٌ عمَّن يظنُّ أنَّ النصرَ يقعُ بالعدّة والعتاد فقط، أوْ مَن يتصوّرُ أنَّ النصر مختصٌّ بالمؤمنين والهزيمةَ شأنُ الكافرين، بل الأمرُ أكبر من ذلك فإنَّ النصرَ متعلِّقٌ بمشيئة الله، وهو يختارُ مَن ينصرُهُ بلا توهُّمات أوْ تصوُّرات منقوصة، وقد تكونُ الهزيمةُ للمؤمنينَ في المعارك بالنَّظر إلى الظاهر، لكنّه نصرٌ ضمنيٌّ ودرسٌ بليغ كما حدثَ للمسلمينَ في معركة أُحد.

تربيةُ المهابة في النفوسِ مع الثقةِ في وضعِه كلَّ شيء موضِعَه المُستَحِقّ

نكتةُ إسنادِ الفعلينِ المضارعينِ إلى ضمير اسمِ الجلالة:

أُسندَ الفعلانِ المضارعانِ في قوله تعالى: ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ إلى ضميرِ اسم الجلالة؛ تربيةً للمهابةِ والإجلال في نفوس الجميع،

وللدِّلالة على وضعِه كلَّ شيء في موضِعِه المُسْتَحِقّ، كما هو شأنُه تعالى في كلِّ الأمور، ما يعني: أنّ للّه مِنْ وراء النّصر والهزيمة وغيرِهما حِكَمًا وأسرارًا قد نحيطُ بها، وقد نحيطُ ببعضها، وقد لا نحيطُ بشيءٍ منها، وما على المؤمنين إلا الوثوقُ والتسليمُ والصّبر، يقول ابن عاشور: "قَوْله: يَنْصُرُ مَنْ يَشاءُ؛ فيهِ أدَبٌ عَظيمٌ لِلْمُسْلِمينَ، لِكَيْ لا يُعَلِّلوا الحَوادِثَ بِغَيْرِ أسْبابِها، ويَنْتَحِلوا لَها عِلَلًا توافِقُ الأهْواءَ، كَما كانَتْ تَفْعَلُهُ الدَّجاجِلَةُ مِنَ الكُهّانِ وأضْرابِهِم"[1]، بقي أنَّ مفعولَ (المشيئة) محذوفٌ لدلالةِ فعلِ النُّصرة عليه، والتقدير: (ينصرُ اللّه مَن يشاءُ نُصرتَه).

دلالةُ الواو:

(الواو) في الجملة الاسميَّة: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ قد تكون حاليّةً، والجملةُ بعدَها في محلِّ نصبٍ حالٌ من الضّمير المرفوع في ﴿يَشَآءُ﴾، أي: ينصرُ من يشاءُ عزّةً منهُ ورحمةً، وقد تكون (الواو) استئنافية، والجملةُ بعدَها لا محلَّ لها من الإعراب، ووظيفتُها التعليلُ للنُّصرةِ المرتبطةِ بالإرادةِ العظيمة.

بلاغةُ القَصْر:

اختصاص المولى سبحانه بالعزَّة والرّحمة الكاملتين

في جملة: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ قصرَ النّظمُ الكريمُ صفتَي العزَّة والرَّحمة على اللّه سبحانه، المعبَّر عنه بالضمير: (هوَ) قَصْرَ صفةٍ على موصوفٍ قصرًا حقيقيًّا، يؤكّدُ اتّصافه سبحانه وتعالى بالعزّة والرّحمة في سياقِ الحديث عن الوعدِ بنصرِ الرّوم على الفرس في بضع سنينَ؛ لمناسبةِ اتِّصافه بهما للسّياق، كما أفادَ القصرُ اختصاصَ المولى تعالى بهاتينِ الصّفتينِ على سبيل الكمال؛ فهو العزيزُ الَّذي لا يُدانيه قويٌّ في عزّتِه، وهو الرّحيمُ الَّذي لا يُساويه أحدٌ في رحمتِهِ وشفقتِهِ وإحسانِهِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 47.

وجه الاقتصار على الخبرين:

العزّةُ تحولُ دونَ عدمِ حصولِ ما وعدَ به، والرحمةُ تساعدُ المغلوبَ على النَّصر

آثرَ النّظمُ الكريم الإخبارَ عن الله تعالى بهذينِ الخبرينِ دونَ غيرهما؛ لمناسبتِهما لسياقِ الإخبارِ بانتصار الروم على الفرس في بضْعِ سنين، ولتقريرِ أنّ أمرَ النصر والهزيمة خاضعانِ لمشيئة الله تعالى، وليس لأحدٍ دخلٌ فيه، حيث عبّر بـ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾؛ لأنّ عزّتَه وقوّتَه تحولانِ دونَ عدمِ حصولِ ما وعدَ به، وتَقْهرانِ كلَّ من يُغالبُ ذلك أوْ يُعاندُه، ثمَّ ثنّى بـ: ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾؛ لأنَّ رحمتَه هي التي تمكّنُ المغلوبَ من النّهوض والعملِ لأجل تحقيقِ مرادِ الله تعالى ووَعْدِه.

يقولُ ابن عاشور: "عقَّبَ بِقَوْلِهِ ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ فإنَّ العَزيزَ المُطْلَقَ هوَ الَّذي يَغْلِبُ كُلَّ مُغالِبٍ لَهُ، وعَقَّبَهُ بـ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ لِلْإشارَةِ إلَى أنَّ عِزَّتَهُ تَعالَى لا تَخْلو مِنْ رَحْمَةٍ بِعِبادِهِ، ولَوْلا رَحْمَتُهُ لَما أدالَ لِلْمَغْلوبِ دَوْلَةً عَلَى غالِبِهِ، مَعَ أنَّهُ تَعالَى هوَ الَّذي أرادَ غَلَبَةَ الغالِبِ الأوَّلِ، فكانَ الأمْرُ الأوَّلُ بِعِزَّتِهِ، والأمْرُ الثّانِي بِرَحْمَتِهِ لِلْمَغْلوبِ المَنْكوبِ"[1]، ويمكنُ القول بأنَّ (النصر) على الأعداء فعلٌ يحتاج إلى عزَّةٍ تقوّي المغلوبَ، وإلى رحمةٍ تأخذ بيدِه تأييدًا إلى النّصر؛ إذ النّصرُ إعانةٌ على سبيل الشفقة، فالإعانةُ تتسبّبُ عن مدِّ المنصور بالقوَّة مع رحمةٍ به لكي ينتصرَ على عدوِّه.

نكتةُ ترتيب الصِّفتين:

البدءُ بالعزَّة يناسبُ قَهْرَ الغالب، والتثنيةُ بالرّحمة تناسبُ مساعدةَ المغلوب

عبَّر النّظمُ الكريمُ بتقديم العزَّة على الرَّحمة في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ لأنَّ العزّةَ تناسبُ قهرَ الغالبينَ المذكورينَ أوّلًا، وثنَّى بـ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾؛ لأنَّ الرحمةَ تناسبُ إعانةَ المغلوبينَ، وتوفيقَهم للنَّصر على مَن غلبهم، وهم المذكورونَ ثانيا. "فتَرْتيبُ الصِّفَتَيْنِ العَلِيَّتَيْنِ مَنْظورٌ فيهِ لِمُقابَلَةِ كُلِّ صِفَةٍ مِنْهُما بِالَّذي يُناسِبُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 48.

ذكره من الغَلَبَيْن"[1]، ويحتملُ أنه من قبيلِ اللفِّ والنشر المرتّب على قوله: ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ المتضمّنِ للنُّصرةِ المرتبطةِ بالإرداة؛ إذ ينصرُ المغلوبَ لأنّه العزيزُ القويّ، ويختارُ مَن ينصرُه؛ لأنّه رحيمٌ ومريدٌ للإحسانِ بالمغلوب، ويحتملُ أنَّ هاتين الصّفتين من قبيل اللفِّ والنّشر غير المرتّب؛ إذ ذكرَ (العزة) وهي تناسبُ المشيئةَ؛ إذ المختارُ في فعله عزيزٌ وقويٌّ باختياره، وذكرَ (الرحمة) لأنّها تناسبُ النّصرَ للمغلوبِ على الغالب.

علّةُ المبالغة بصيغةِ (فَعيل):

الـكـمـالُ لله تعالى وحدَه

جيءَ بالخبرينِ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ بصيغةِ (فَعيل)، التي هي إحدى صيغِ المُبالغة؛ للدلالةِ على أنَّه لن يبلغَ مبلغَه سبحانه فيهما أحدٌ، فلن يُعاند ما قدَّره وأرادَه من غلبة الرّوم للفرس أحدٌ مهما كانت عزّتُه وقوّتُه، كما أنَّه لن يَحولَ دونَ هزيمة الفرس من الروم أحدٌ مهما كانت شفقتُهُ ورحمتُهُ.

توجيهُ المتشابهِ اللّفظيّ:

لا يرحَمُ في يوم القيامة إلا مَنْ كان قادرًا رحيمًا

وردَ الإخبارُ عن الله تعالى بوصفَي: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ في مواضعَ كثيرةٍ من كتاب الله الحكيم، منها آيةُ سورةِ الروم، ومنها قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾ [الدخان: 42]، وسبقَ بيانُ وجهِ الاقتصار عليهما في سياق سورةِ الروم، أمّا في سورة الدخان، فتَمّ الاقتصارُ عليهما؛ لأنَّ الإخبار بهما يأتي في سياقِ الحديث عن يوم القيامة، حيثُ يقول تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الدخان: 40 - 41]، واتّصافُ المولى بهذينِ الوصفينِ مناسبٌ للاستثناء تمامَ المناسبة؛ إذ لا يرحَمُ في هذا اليوم إلّا مَن كان قادرًا رحيمًا.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 48.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والأربعون،
سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والأربعون، سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 42 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-93-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 42 : المجلد الثاني والأربعون، سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-93-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-2154237 بتاريخ 2024/12/25م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»